أزمة الفلسفة في الفكر الانساني المعاصر

الفلسفة . . . . . لماذا . . . ؟ *

الدكتور عبد الرزاق قسوم
معهد الفلسفة جامعة الجزائر

المدخـــــــل :

● *إن التأمل البسيط في العنوان المفتوح للبحث، يسلمنا الى مجموعة من التساؤلات، والعوامل، بعضها ذو طابع موضوعي والآخر منهجي، أو غائي. وهذه التساؤلات والعوامل على اختلاف معانيها، هي التي تسهم في محاولة فك الاشكالية المحيطة بتناول هذا الموضوع، موضوع التساؤل عن معنى وجود الفلسفة، والتصدي للاجابة عنه.*

ونبدأ الاجابة في تحديد موضوع الفلسفة، بصياغة اجوبة في شكل تساؤلات : تبدأ بالسؤال التقليدي البديهي، ما هي الفلسفة؟ وتنتهي بالبحث عن العلاقة المعقدة : علاقة الفلسفة، بالعلم، والدين، واللغة، والمجتمع لاستخلاص ما يمكن وصفه بمقومات الوجود والبقاء.

فإذا انتلقنا الى القوالب المنهجية، واجهتنا تعقيدات أكثر، تتمثل على الخصوص في نوعية المنهج الذي ينبغي ان يتميز به الخطاب الفلسفي اليوم، في عصر يطبعه المنهج العلمي، وتستبد به قوالب التكنولوجيا المقدسة، ويخيم عليه الظل الديني المتنامي.

ونعمد في النهاية الى تركيبة موضوعية منهجية، نستخدمها كمفاتيح وأدوات للنفاذ الى عمق البحث الفلسفي باحثين عن غائية التأمل، وأهمية النتائج التي يتوق الانسان العصري الى تحقيقها من خلال الاعتماد على العقل الفلسفي بحثا عن الخلاص، وإثباتا للذات.

مداخلة قدمت في اليومين الدراسيين الفلسفيين بجامعة الجزائر.

ان في ثنايا الموضوع من خلال العنوان المقترح للبحث اذن، ما يوحي بوجود أزمة عقلية، هي التي تجسمها هذه «اللمذائية» التي تصاحب مدلول الفلسفة.

وان كل محاولة لتشخيص اعراض الازمة الفلسفية ان نحن سلمنا بها جدلا، ينبغي ان تبدأ بتحديد شكل التأزم واستفحال اسبابه.

لعلنا لا نضيف جديدا، اذا انطلقنا من بداهه التأكيد على ان عصرنا اليوم، وقد طبعته الآلة، والتكنولوجيا وكل اشكال الاكتشاف العلمي، لم يعد يحس بالحاجة الى الفلسفة. وبالتالي لم يعد يمنح اهمية كبرى للثقافة ذات الطابع العقلي، في مقابل العمل التقني القائم على المهارة الفنية. ومعنى هذا ان الثقافة هي الوعاء الموازي للفلسفة... واذا سلمنا بأن كلا من العمل العقلي، والعمل التقني، إنما يهدفان الى تغيير العالم، امكن القول بأن المثقف في أبسط تعريف له هو من يحاول تغيير الواقع المحيط اعتمادا على العقل لا على المهارة الفنية.

في ظل هذه المسلمات يمكن القول، بأن التساؤل عن جدوى ممارسة التفلسف، وعن قيمة الخطاب الفلسفي في المجتمع انما يقودنا الى التسليم بنوع من التأزم الذي يتجلى في رفض الفلسفة مما يعكس يأس المثقف من نفسه، ومن ثقافته.

1) ـ الموضوع الفلسفي :

■ إن البحث عن أسباب الالحاح الشديد في عالمنا اليوم، على استبعاد كل الافكار الفلسفية، يدفعنا الى اعادة السؤال التقليدي القديم في صياغة جديدة... وما هي الفلسفة... وما هي المخاطر التي تتضمنها، لتجعل الناس يناصبونها العداء؟ وهل صحيح ان الفلسفة مستهدفة اليوم؟ ومن اي صنف من الناس بالذات؟.. لقد كانت الاجابة الجاهزة عن مدلولية الفلسفة تكمن في كونها «حب الكلمة» و«أم العلوم» و«اكمل واحسن تجسيم لمعنى الثقافة» والمضيئة لدرب كل «ألوان المعرفة» الخ...

اما اليوم فقد اختلفت التعريفات، وتنوعت ما بين مشيد بقيمتها وحتميتها على استحياء، وبين مجاهر بعدائها، ومناد بنبذها، والقضاء عليها معتبرا اياها «علما زائفا يستغل غموض الكلمات» (1). وهؤلاء المناوئون للعداء هم الذين يصفون الفلاسفة، بأنهم اولئك الذين «دأبوا على تعقيد ما هو واضح، بدلا من إيضاح ما هو غامض» (2).

من هنا نمسك بخيوط الازمة الفلسفية في واقعنا اليوم، وندرك معنى عمق الداء الذي يعاني منه العقل الانساني، ولو طلب منا ان نحدد بكلمة، الخاصية الاساسية لظاهرة التأزم الفلسفي، لقلنا بأنها أزمة وجود قبل ان «تكون أزمة» إبداع.

(1) ـ هدف الفلسفة، الآداب، بيروت. العدد الثاني. فبراير 1963.
(2) ـ الفيلسوف ومشكلة الآداب. بيروت. العدد الثاني فبراير 1964.

ويشفع لنا في «تبنّي هذا الوصف ان الفلسفة تنزع اليوم الى ان تستعيد طابع الشمولية الذي كانت تتميز به عند نشأتها على نحو منهجي منظم.

ففي مقابل انها «حب الكلمة» يعكس الفيلسوف الالماني هيد جر المقولة، ليجعلها «حكمة الحب» وبهذا يكون الفيلسوف في مفهوم هيدجر هو الحكيم الذي تخصص في الحب، على ان يؤخذ مدلول الحب هنا بمعناه الاسمى، والاشمل، أي الرابطة الوثيقة التي تجمع بين الفكر والطبيعة، أو بين الانسان والعالم (1).

ودعاة حكمة الحب في الفلسفة، يعمقون هذا المعنى، ويوسعونه ليشمل كل أبعاد الفكر الانساني المتناول لشتى مشاكل الوجود... وبذلك تصبح الفلسفة هي ايديولوجية الانسان، التي منها ينظر الى الاشياء، ويقف ازاءها مواقف خاصة، ومنسجمة بعضها مع بعض، ومعنى هذا ان الفلسفة موقف، لاينتج عن عملية التفكير المنطقي للانسان فقط، بل يكون نتيجة مجموع قواه البدنية والنفسية والفكرية متفاعلة كلها مع المحيط الاجتماعي والطبيعي خارج الكائن.

ان ادعاء الفلسفة لشمولية المواقف الانسانية كلها، من مثالية ومادية، وعقلية وعلمية، قد حدد للايديولوجية الانسانية التي تتبناها الفلسفة، موقفا ايديولوجية طموحا، وهو ما جلب عليها نقمة الناقمين.

فالمحلل لازمة الفلسفة اليوم، يلاحظ ان هذه الازمة قد اشترك في صنعها، وتعميقها، أصناف وأنواع من الناس ويمكن تقديم نماذج منهم : (1)

* تهاجم الفلسفة اليوم على الصعيد المعرفي، من جانب العلماء او المتحلين لاسم الفلسفة، الذين أغشاهم نجاح الفيزياء، فعمدوا الى اختزال النشاط العقلي الى نشاط ذي طابع علمي.

* الفلسفة مستهدفة اليوم باسم هاجس الفعالية من جانب التقنيين الذين يلاحظون ان الفلسفة لم تمكننا من أية قدرة للسيطرة على العالم.

* على الصعيد السياسي، تعادى الفلسفة من جانب الرجعيين، والتقدميين على السواء، فالأولون يخشون منها اشاعة حرية النقد وما ينجم عنه من افكار هدامة حسب زعمهم.

أما التقدميون الثوريون، فهم يأخذون على الفلسفة تحويلها لنا، عن المهام الاجتماعية، لتتحول الى ايديولوجية تخدم ركاب نظام معين او طبقة ما.

ولعل في هذا السياق، يمكن ان نسوق مثال ماركس. فماركس هو صاحب الاعلان عن مقاطعة تعاطى افيون الشعوب، كم انه صاحب بؤس الفلسفة، ومعلم الحقد (بين الطبقات)، ومبيد القيم، والمبشر بفلسفة الاسفل ضد الاعلى.

(1) ـ المصدر السابق.

(1) لمن شاء ان يتعمق في هذه المسألة، نحيله الى كتاب فرديناند ألكي، «معني الفلسفة» :

F. ALQUIE.

Signification de la Philosophie. Paris. Hachette

* يناصب الفلسفة العداء، أصحاب «الموده»، والتجديد، الذين يعتبرون، في حكم البالي القديم كل فكرة انقضى عليها اسبوع.
وقريب من هؤلاء دعاة الادب الذين يناصبون باسم الجمال الفني العداء للفلسفة، ويشتكون من غموضها، ويحكمون على اسلوب كتاباتها بالرداءة والعقم.

* والفلسفة مهاجمة أيضا من جانب المتدينين، معتبرين أياها مطية للزيغ، والزندقة والالحاد. والأمثلة على ذلك عديدة، ويمكن ان يساق حجة الاسلام ابو حامد الغزالي، من خلال كتابه «تهافت الفلاسفة»، ونكبة ابن رشد، وموقف فقهاء عصره منها، وقد يعيد التاريخ نفسه ويعادي الجمهور الفلسفة، ويناصبها العداء، لانه يعاني اللق، والتعب، والاضطهاد، وهو لذلك ينشد كل ما فيه متعة.
ان هؤلاء جميعا من علماء، ومتدينين، وأدباء، وفنانين يسكنون جميعا تحت قبة سؤالنا الكبير لماذا؟ الذي يطبع خاصية هذا البحث.

كما ان هذه النظرة السطحية المعادية للفكر الفلسفي، إنما جاءت نتيجة تزمت، ونشدان منفعة أو لذة عابرة، دون محاولة النفاذ الى صميم الحقيقة الفلسفية التي هي في تحديدها الدقيق تمثل الفكر الناضج في المجتمع الانساني. إنها البحث الحر الاستدلالي.

اننا لا نجانب الحقيقة حين نقول بأن الفلسفة بهذا المعني، تمثل تأملا عميقا، وارتفاعا فوق مستوى الاحداث الجزئية، بحيث يدرك الفيلسوف العلاقات الكامنة بين الاشياء في شمول وكلية، ويحاول اعادة الربط بينها، وتصنيفها والصعود منها الى المبادىء، اي ان يصل في النهاية الى العلل الاولى للاشياء. (1)

(1) ـ مطاع مفدي ـ مسرحية الآكلون لحومهم ص. 21

2 ـ المنهـــج الفلسفـــي :

لتسهيل مهمة التحليل الفلسفي، والنأي به عن أي غموض أو خلط، ينبغي اللجوء الى محاولة التمييز بين مختلف المناهج العلمية المستخدمة اليوم، بغية استبقاء المنهج الفلسفي منه، واخضاعه للبحث والتقييم.
ولاجدال في أن تعدد المناهج المستخدمة في البحث العلمي تمثل احدى حلقات الاشكالية المنهجية السائدة، ولكن يمكن التخفيف من حدة هذه الاشكالية بانتقاء أهم المناهج، والتي تتمثل في نظرنا فيما يلي :
— 1 المنهج العلمي.
— 2 المنهج الديني.
— 3 المنهج التاريخي.
— 4 المنهج الفلسفي.

وسأكتفي بتعريف بسيط لكل منهج من هذه المناهج للوصول منها الى المنهج الفلسفي، وهو الذي يعنينا، لتسهل المقارنة بينه وبين المناهج الاخرى.

1 ـ المنهـج العلمـي :

على العكس من المنهج الفلسفي، يبدو المنهج العلمي بأوسع مدلولات شمولية العلم، كما لوكان الطريقة المنظمة للبحث التي تعتمد اساسا على الملاحظة والتجربة. وبهذا التحديد المختزل لطريقة البحث العلمي، ينقل العلم من مفهومه الشمولي، كما يؤكد عليه الفكر الاسلامي، ليتقلص الى معناه الحديث، بحيث يدل على طبيعة مزدوجة تتمثل في المدلول المنطقي الرياضي والتجريبي.

إن مهمـة المنهـج العلمي، المحددة له، تتمثل في ضمان صبغ البحث بصبغة علمية رياضية تبعد عنه اكبر قسط من الخطإ.

ان المنهج العلمي ينتقل اذن، من الملموس الى المجرد، مما يخضع الشيء للموضوع، ويجعله يقوم على طريقة يمكن وصفها بالطريقة الموضوعية (1).

لعل من مساوىء هذه الطريقة، أنها تجاوزت في تطبيقاتها الاشياء الى الكائنات العقلية، ولعل هذا ايضا ما يفسر مصدر الازمة التي تعانيها الحضارة الحديثة، حيث تكمن في اختزال العالم الحديث، لكل انواع العلاقات التي يمكن ان توجد بين الانسان، والعالم، ليحصرها في العلاقة الوحيدة، وهي العلاقة التقنية، مما أدى الى تشييىء كل شيء بما في ذلك الانسان.

2 ـ المنهـــج الديـــني :

إن المنهج الديني ينطلق من قاعدة التسليم بالألوهية، كقوة متعالية خالقة، مدبرة للكون كما هو الحال في المفهوم الديني الاسلامي، وبهذا يختلف الاله الديني، وفقا لهذا المنهج، عن اله الفلسفة او الاله الميتافيزقي. فإله المنهج الديني يتم إثباته بواسطة الاعتراف به، والتسليم بصفاته ـ على سبيل الوجوب ـ مما يجعله فوق كل تصور عقلي. بينما إله الفلاسفة، أو إلاله الميتافيزيقي، فهو خاضع للتأمل الفلسفي الذي قد يثبته، وقد يرفضه.

وتبقى علاقة الفلسفة بالمنهج الديني، ممثلة في حرص الفلسفة على إثبات مدى يقينية النتائج الموصل اليها هذا المنهج الديني، ليتبناها العقل الانساني، واعتمادا على منطق العقل السليم، الموازي لمنطق النقل المقدس. لذلك ينبغي البحث دائما عن الفلسفة الاولى او الميتافيزيقيا داخل كل منهج ديني.

1 د. محمد علي الدربان : الفلسفة ومساحتها. القاهرة. دار المعارف.

- Proceding of the VV th World Congress of Philosophy TI. p.26 WARNA (Sofia) 1973

وتعجبني، في هذا المجال، كلمة لمحمد عزيز الحبابي، يقول فيها ان المنهج الديني يقوم على اساس المعاناة (L'epreuve) في حين يقوم المنهج العلمي على اساس البرهنة (La preuve)

وهكذا تتجلى القاعدة المنهجية السابقة التي أشرنا اليها و التي مفادها، ان للمنهج الفلسفي الحق في اخضاع كل مظهر من مظاهر التجربة للتساؤل والنقاش، بما في ذلك التجربة الدينية. وهذا يلتقي مع الحقيقة الفلسفية المتجددة القائلة، بأن الفلسفة تكمن في كل علاقات الانسان بالموجودات وبقد عبر ديكارت عن هذا احسن تعبير، حينما قارن بين شمولية العلم والفلسفة، فقال في كتابه «مباديء الفلسفة» بأن الفيزياء تمثل جذع شجرة، أصولها الميتافيزيقا، أما اغصانها، فهي باقي العلوم الاخرى.

3 ـ المنهج التاريخي :

ان المخطط الذي يقوم عليه المنهج التاريخي الصرف ينزع الى الالتقاء بمختلف الاحداث والتجارب الانسانية، وهو وان كان يلتقي بالايديولوجيات، الا انه، لايمكنه ان يلتقي بالفلسفات، ذلك لأن الذات الفلسفية تختلف عن الذات التاريخية في كونها ليست ذاتا شخصية محددة، او عاطفية، وانما هي ذات مفكرة (1). وكل فكر اصيل ينزع دائما الى الحرية والى قدرته على اصدار احكام شرعية لايحدها زمان.

إننا امام موقفين من المنهج : موقف الفلاسفة الذين يعتبرون المجتمع والتاريخ كأحداث، ينبغي الحكم عليها، والموقف الاني، موقف أولئك الذين يدينون الفلسفة باسم التاريخ، وباسم تطور العالم.

والحقيقة، ان التاريخ بوصفه تاريخا ليس هو الذي يتصدى للفلسفة، ويحكم عليها، وإنما الذي يتصدى للفلسفة هو التاريخ بوصفه منهجا، معتمدا في ذلك على فكرة التاريخ، بوصفها حقا مكتسبا من جهة، وعلى مقولة الزمن التي يتضمنها كل معنى للتاريخ بوصفها قيم من جهة اخرى (2)..

على ان العلاقة تبقى قائمة بين المؤرخ المتخصص في رصد الاحداث، وتسجيلها، ومؤرخ الفلسفة الذي يعمل على سبر اغوار الابداع الفكري واستخلاص العبر والنتائج منه... وهو ما سنتناوله بالتفصيل في المنهج الفلسفي.

4 ـ المنهج الفلسفي :

ينبغي التمييز في المنهج الفلسفي بين الفيلسوف، وبين مؤرخ الفلسفة : وهما معا يشتركان في صنع الخطاب الفلسفي ويمكن بكلمة واحدة تحديد كل منهما بالقول بأن دور الفيلسوف يتمثل في محاولته فهم الواقع، بينما يكمن دور مؤرخ الفلسفة في محاولته فهم الفيلسوف، ومعنى هذا انه لايمكن لمؤرخ الفلسفة ادعاء تجاوز الفلسفة، بل على العكس يعمل جاهدا للنفاذ الى معانيها، والوصول الى حقائقها. ومثل هذا الحكم يدفعنا الى التسليم بقاعدة منهجية فلسفية، وهي ان بعض المناهج التي يمكن استخدامها من خارج

(1) - F. Alquie. Signification de la Philosophie P. 28

(2) ـ المصدر السابق ص. 30.

الفلسفـة، لايمكن ان تساعدنا على فهم الفلسفة. فمحاولة تطبيق المنهج الاجتماعي او التاريخي او النفسي على الفلسفة، لا اخاله يقدم معنى صحيحا للحقيقة الفلسفية. ذلك ان الفلسفة، وان كانت تتميز بشمولية المعرفة، الا انها تبقى في اساسها تأملا شخصيا قائما على العقل.

هل معنى هذا أن المنهـج الفلسفي ـ كي يكون وفيا للفلسفة ـ ينبغي ان يحكم علينا بالعمل داخل الفلسفة لاخارجها.

ان من مميزات المنهج الفلسفي انه نزاع الى الشمولية وإلى الاستعانة بمختلف الوان المعرفة لا على اساس انها علوم اخرى. ولكن كجزء من الابداع العقلي.

وحينما تتقوقع الفلسفة وتنغلق على ما هيتها يحكم على العقل بالتخلف والسقوط.

ولوشئنا ان نعمق هذه المسألة قليلا لاستعنا بالمنهج لأدبي لمقارنته بالمنهج الفلسفي.

ففي المنهـج الادبي خلاف حاد، ومعـركـة دائمـة لتحديد من هو المبدع الحق، اهو القصاص او الروائي الذي يغمس قلمه في صميم المعاناة، ليكتب قصته أم هو الناقد الذي لم يكتب ـ ربـما ـ في حياتـه قصـة واحدة، ومع ذلك فهو يمنع نفسه حق المبدع، ويجرد القصاص او الروائي من هذا الحق.

ان مدرسة النقد الجديد في الادب، تتهم المؤلف بأنه غالبا المنتج الذي تنقصه المقومات النقـدية الجامعية التي تخوله فهم مايكتتب، وبذلك ينبغي ان يوضع مثل هذا المنهج في مستـوى اقـل من مستوى الناقد الذي بفضله، يضفى على العمل الادبي طابع الابداع الحقيقي. انها معركة مفتعلة، وغير واعية، هذه التي تصطنع تنافسا بين المنتج والناقد ذلك ان المنتج والناقد لونان متكاملان للابداع الفني، وان اختلفا في تقاسيم انتاجهما، ومميزات اسلوبهما.

اما في المنهج الفلسفي فلا شيء من هذا يحدث على الاطلاق فالتكاملية قائمة بين مؤرخ الفلسفة، والفيلسوف ولم يدع باحث الفلسفة في يوم من الايام انه يمكن ان يتجرد من الفلسفة في قيامه ببحثه ـ بل انه يقدم على عمله مدفوعا دائما بهاجس فلسفي يمكنه من سبر اغوار اديولوجيات الماضي.

فباحث الفلسفة في محاولته الكشف عن الجواهر الفلسفية ذات القيمة الخالدة، يعمل جاهدا لتعميق هذه الجواهر الدفينه، ببذل جهد فلسفي يمكنه من اعادة بعث وتأسيس تلك القيم الفلسفية في واقع اليوم (1).

(1) - F. Alquiné . p. 23

ومؤرخو الفلسفة يتسمون بالتواضع دائما، وهذه من خصائص المنهج الفلسفي، فهم ليسوا في عداد كبار الفلاسفة. ولا احد منهم يدعى انه بمثابة «افلاطون» او «ابن رشد» او «ديكارت» ولكنهم مع ذلك يشبهون، هؤلاء الفلاسفة بكونهم تحذوهم نفس المتطلبات، والتي بدونها لا يمكن فهم ما يدرسون.

ومن مميزات المنهج الفلسفي، انه يرفض مبدأ التهافت في الفكر، فالحكم على فكر ما بالتهافت معناه رفض فهمه.

ولعل الصعوبة المنهجية التى نواجهها في تطبيق هذا المبدأ هي ان الحكم بالتهافت والبطلان على فكر فلسفي ما، ليس دائما من عمل غير الفلاسفة، بل ان الفلاسفة هم ايضا يتمردون على منهجهم، فيحكمون على بعض الاعمال الفلسفية بالاعلام، ويتحولون بذلك الى اعداء للفلسفة. والقائمة طويلة، فالغزالي، وابن رشد، وديكارت، وكانط، ونيتشه، وماركس، وغيرهم، كلهم تصدوا لاعمال زملائهم الفلاسفة فأصدروا حكما بالتهافت عليها.

نحن لا ننكر ان ناقد الفلسفة يمكن ان يكتشف في اي عمل فلسفي حكمة وبعد نظر، قد يكون خفي على الفيلسوف الكبير ولكن هذا يمثل جزءا من مهمة مؤرخ الفلسفة وناقدها. فبدون اعمال الفكر من جانب النقد، ومحاولة استخراج كنوزه، يصبح عمله بلا قيمة. انه سيحكم على نفسه ـ بنوع من السكونية، والمحاكاة التي تتمثل في مجرد نقل عمل الفيلسوف او اعادة طبعه، او قراءته بصوت عال، وهو ما لايضيف اي جديد.

ودون الاطالة في تحديد خصائص ومميزات المنهج الفلسفي يجب ان نضيف، ان تأكيد العمل الفلسفي، ينبغي ان يسمو عن العاطفية الى العقلية، فالطابع العقلي للعمل الفلسفي، حتمية تفرضها قواعد المنهج الفلسفي، فالفلسفة تمثل الوعاء الذي يتضمن البداهة. . . وهو ما يميزها عن العلم، وعن الدين، بحيث يمكن وصفها بسمو المعرفة، وقد قدم لنا تاريخ الفلسفة عبر أزمنته المختلفة كيف ان المنهج الفلسفي قد استخدم أساليب عديدة، كالحوار، والعروض النسقية، والتأملات، للوصول الى الحقيقة الفلسفية، وبالتالي الى اثبات الوجود الفلسفي في مختلف قطاعات حياتنا الثقافية.

اذا فهمنا موضوعية الفلسفة وعلاقتها القديمة والحديثة بباقي العلوم، واذا فهمنا مميزات المنهج الفلسفي المستخدم للوصول الى الحكمة او الحقيقة، في مقابل باقي المناهج السائدة، امكن التساؤل الآن عن هدف الفلسفة وغائيتها.

لقد اتى على العقل الانساني حين من الدهر، كان فيه يتجه الى السماء بأبراجها، ثم نزل الى الارض بفجاجها. مستخدما في ذلك التأمل الفلسفي، ولكن العقل المتفلسف اليوم نقل محو اهتمامه من الطبيعة او الكون اليالانسان ـ الى الذات لانسانية بجميع ابعادها مركزا على العقل.

فالخطاب الفلسفي يعمل جاهدا اليوم على اثبات ان الموضوع ليس هو الذات وحتى هذا القول يحتاج الى تدليل فلسفي، فغاية الفيلسوف اليوم ان يحدث لدى الاخرين نفس القدرة التأملية التي تكمن خلف طريقة تأمله الفلسفي (1) بمعنى ان على الفيلسسوف ان يعمل جاهدا لاشاعة المعاني العقلية في الواقع المحيطي.

وحتى لو طالعتنا في الميدان الفلسفي محاولات معاكسة، تغلف نفسها بغلاف العبث، او القلق. كما هو الحال في فلسفة من الوجود الى العدم، فان هذا ايضا يمثل نوعا من التعقل في تحليل واقع الانسان اليائس.

فالفلسفة ترد على هذا اليأس الانساني بإشاعة الحب بأوسع وأعمق مدلولات الحب : فالحب في دين الفلاسفة تعبير عن حاجة النفس، وعن مطلب تفتقده فتتجه الى طلبه وتحقيقه.

فعندما قال «هيدجر» بأن الفلسفة هي «حكمة الحب» في مقابل حب الحكمة قديما، كان يعني ما يقول. ذلك ان الفيلسوف في مفهوم هيدجر رجل تخصص في الحب، وعندما فشل الفيلسوف في اشاعة الحب حوله، أصيب الانسان بالقلق، والعبث والغثيان كما تحاول الوجودية ان تعلمنا اياه.

فالمهم بالنسبة للفيلسوف اثبات وجود الانسان، والدفاع عن مقوماته. ذلك ان الانسان كما يقول «شوبنهور» (هو حيوان ميتافيزيقي، لانه دائم البحث عن وجوده). (1)

كما ان غاية الفلسفة عند ديكارت هي تحقيق سعادةالانسان (2).

ان الحب والسعادة بالمفهوم الفلسفي مقولات يصنعها العقل لا العاطفة، وبذلك هي مقولات جوهرية تنزع الى تحقيق نوع من الديمومة.

فالعقل اذن دعامة العمل الفلسفي قديما وحديثا، ناهيك انه يمكن وصفه بأنه العلم المعبود داخل الهيكل الفلسفي.

ولو حاولنا تأمل غاية الفلسفة وهدفها، منذ القديم في ضوء مقولة الحقل، لأمكن القول بأن غاية الفلسفة يمكن حصرها في ثلاثة اسئلة تقليدية تعتبر اساسية في الميتافيزيقيا او الفلسفة الاولى... وهذه الاسئلة هي :

1) ـ ما هو الواقع الاصلي.. وفيما يتمثل بالنسبة للمادة والحياة والفكر؟

2) ـ ما معنى القيم في عالم الاخلاق؟.

3) ـ ان السؤالين السابقين خاضعان للسؤال الثالث وهو البحث عن مصداقية المعرفة وهل يملك العقل الانساني المؤهلات التى تمكنه من الاخذ بالواقع، وفهمه؟

ونعتقد انه للاجابة على هذه الاسئلة المصيرية في الوجود والواقع الانساني على وجه الخصوص، لايمكن الاكتفاء بالعقل وحده، وإنما ينبغي ان يضاء هذا العقل بالحدس، والنور الا لهي. فللاجابة عن الاسئلة الثلاثة، يمكن للفلسفة ان تساهم في شرح وتوضيح مختلف مظاهر الحياة الانسانية.

والمقصود بالحياة الانسانية هنا، تحديد علاقة الانسان بالطبيعة، وتحديد علاقة الانسان بأخيه الانسان، وهو قمة ما تصبو اليه كل فلسفة صحيحة سليمة. ومعنى ذلك ان العمل الفلسفي قد اتجه اليوم الى الكائن لا الى التأمل الفلسفي ذاته.

ان الفلسفة اضافة الى كل ما سبق تبقى ارادة قوية في اكتساب المعرفة.

والآن وقد انفصلت عنها العلوم، فإن هذه الفلسفة لا ينبغي ان تدعي لنفسها الصبغة الموسوعية. فعلى الرغم من انها لم تعلن ـ حتى الآن ـ تخليها عن نزعتها الشمولية الا ان الملاحظ ان ميدان ممارستها قد تقلص وتنوع، واصبحنا نستخدم اليوم مصطلح فلسفة العلوم، وفلسفة التاريخ، والفلسفة السياسية.. الخ. وهو ما يشمل نوعا من التوفيقية بين مفهوم الفلسفة قديما، ومفهومها اليوم.

وما يمكن ان نضيفه في نهاية هذا العرض هو التأكيد على مقولة الحب. وتتوجه بذلك الى المنسلبين باسم الفيزياء والعلوم، والى دعاة تهافت الفلسفة لنقول لهم، بأن تجربة الحب،

حتى ولـــو طبقت على ابسط النفـــوس، فانها ستكشف عن ذات بشرية تجسم السمـــو الانساني، والقيمة الاخلاقية التى لا يمكن ان تظفر بها في فهمنا لأية معادلة رياضية.

وحتى اذا كانت حياة الفـــلاسفـة تتسم ـ تحت وطـأة عوامـل عديدة ـ بالغمـوض، والصرامة، وعدم اليقين.. فإن الفلسفة في نقائها وصفائها. وسلامة مقدماتها ستظل مرادفة لمعنى، اليقـين، والحب، والسـلام، وعنـدئـذ يصبـح سؤال كالـذي نلقيه حول لمذائية الفلسفة، يصبح سؤالا لا معنى له، لانه يجد جوابه في هذا المعنى الصحيح للفلسفة، «كحب» كيقين، كسلام.

1) ـ الفلسفة ومباحثها. ص. 50

2) ـ المصدر السابق ص. 54.